أخر تحديث:-
بتاريخ: ٢٠٠٤/١٠/١٢
الساعة ٤:٥٦:٣٨ مساءً بتوقيت غرينتش
الساعة ٠٦:٥٦:٣٨ مساءً بتوقيت عمان

منبر السبيل

التاريخ يعيد نفسه!

د. أحمد نوفل

بينما أقرأ في كتاب -متميز- من وجهة نظري، عن يعقوب صنوع «أبو نظارة» وهو يهودي اسرائيلي ايطالي «مصري لاحقاً» يجمع العلمانيون العرب «زوراً» على ريادته المسرح المصري.

أقول، هذا الكتاب الذي عنيت هو: «محاكمة مسرح يعقوب صنّوع» للدكتور سيد علي اسماعيل،وهو مثال للبحث العلمي المدقق المحقق، وفيه يقول الكاتب انه كان احد المرددين للمقولة الرائجة عن الريادة المزعومة إياها ثم تجلى له بالبحث والتنقيب أنها كلها دعاوى زائفة لا تستند الى أثارة من دليل أو شبهة علم.

وليس هذا موضوعي، انما موضوعي انه لفت نظري في ملاحق الكتاب (ص٣٠٦) ما كتبه أبو نظارة عن الخديوي اسماعيل، وكان أبو نظارة يكتب بالعامية، فهذه سطور مما قال سأترجمها الى الفصحى بعدها: «في سبعة وعشرين جونيو سنة ثمانية وسبعين، يعني منذ سنة تمام قلت للحاضرين بأن لا تمضي من اليوم سنة تمام، الا ويكون أشرف على السقوط، الظالم ابن الحرام، ومنذ أربعة أيام قبلما بالتنازل أمروه الفرنساوي والانكليزي، قلت له في جوابي: يا عزيزي، قل على ملكك يا رحمن يا رحيم، فان كان الجندي ما تنال عن مشيخته للآن، فلابد ان يحصل ذلك، لان ده مراد جميع الدول الأوروباوية، اللي عرّفناهم بفظايعه، وجوره وظلمه بالديار المصري.. و(اخباره) كنت أدرجها بأعظم الجرايد الافرنجية، فحينئذ جميع جرانيل محبي الحرية والانسانية (لفتت) النظر الى فعايل الجندي الفرعونية.. (والآن) جميع جرانيل أوروبا بتزعق على نفس واحد، وبتقول حرام تولوا الولد العبيط ده على وادي النيل.. فالآن يا ابناء مصر اعملوا خلاصكم..»

والان نلخص ما قاله هذا الصنوع المصنوع:

«في اليوم السابع والعشرين من حزيران ١٨٧٨ قلت: لا تمضي سنة من الآن الا ويكون الخديوي اسماعيل قد سقط. واذا لم يتنازل حتى الآن فانه سيفعل، لأن هذه رغبة جميع دول اوروبا -ولقد قمت بفضح مظالم الخديوي في أوروبا ونشرت ذلك في الصحف العظيمة هناك، وهي تنادي بصوت واحد (!!) أن لابد أن يتنازل هذا عن العرش.

وفي ختام المقال يحرض أبناء مصر على التغيير ويستعمل الدراجة: «عقلكم في راسكم، اعملوا على خلاصكم..». ثم يمتدح نفسه -على ما هي عادته وأدبه- فيقول: ان أبو نظارة عمل الواجب -يا جدعان- (بالنص) وخلصكم من فرعون الشيطان (بالنص).

والذي نريد التوقف عنده هو ما أسميته: التاريخ يعيد نفسه. وكيف اذا أراد الغرب تغيير نظام أو وضْع -كما حصل لصدام مثلاً- يجند عملاء من البلد نفسه ويفتح لهم صدر وسائل الاعلام ليرووا مظالمه -وكان من قبل يتكتم عليها- واطمأن العربي المخدوع، لكنه دائماً من مأمنه يؤتي الحذر.

وأمر آخر، كيف استطاع هذا الايطالي اليهودي الذي جعل شعاره فوق صورته في جريدته المسماة أبو نظارة، نجمة اسرائيل، كيف استطاع ان يتغلغل بهذا الشكل في المثقفين والمجتمع ووسائل الاعلام وفي السياسة والاقتصاد؟ وكم صنّوع يتصنعون الغيرة والوطنية أمس واليوم وغداً وهم صنائع للاستعمار وقوى الاستكبار؟

ولاحظ تعبيراته عن الخديوي بالجندي! ولاحظ تعبير محبي الحرية الذي ما زال يردده بوش وأضرابه.

ويقول صنوع عن نفسه في موطن آخر:

«ولما كنت في حماية الماسونية التي كان يخشاها الخديوي كثيراً، وفي رعاية جميع القناصل الاوروبيين فان اسماعيل لم يكن يستطيع قتلي».

أقول: وهذا يفسر لنا كثيراً وبوضوح شديد جرأة بعض المنتقدين للأنظمة العربية. وهل نسينا سعد الدين ابراهيم وكيف ان امريكا ربطت مساعداتها باطلاق سراحه عندما كان معتقلاً بتهمة العمالة للمخابرات الامريكية. وأطلق سراحه وعاد لجامعته معززاً مكرماً.

وليس يهمنا صنّوع ولا كل عميل مصنوع ولا كل الصنائع من كل صنف ونوع، وانما الذي يهمنا ان نفهمه كيف أجمع المثقفون ومؤرخو الأدب، بشكل غير مسبوق ولا ملحوق على أمامته وتحمسوا لها وانبروا يدافعون عنها، وهي كما يقول الباحث الجاد الدكتور سيد انها محض تلفيق ودعاية وتهريج لا تقوم على حقيقة ولا قدم ولا ساق.

ولو جئت اسرد لك قائمة الكتاب والمثقفين الذين كتبوا عن امامته وريادته، سرداً فقط، لاحتجت بحجم أو مساحة هذه المقالة أو يزيد. ما تفسير هذا؟

ثم السؤال الخطير الآخر: كم من صنّوع اخر مصنوع صنعت منه الدعاية والتريج علماً ومفكراً ومثقفاً كبيراً وطوداً في الفكر وعملاقاً في الفهم، وربما يكون أعيى من باقل؟

وفي المقابل: هل هناك طمس لمن لا يسير في الركاب ويطأطئ الرؤوس ويحني الرقاب؟ والا فبماذا نفسر أن عملاقاً حقيقياً من مثل مصطفى صادق الرافعي عاش ومات مجرد كاتب في محكمة.

ولماذا همش وأقصي نابغة مثل زكي مبارك؟ ولم يأخذ وزنه طيلة عمره هرم فكر كالعقاد مثلاً.. أو عبدالرحمن بدوي؟ ولماذا اخرون أقل موهبة تتاح لهم فرص ويشقون طريقهم بمنتهى اليسر وغيرهم ايحفر في الصخر.

هذه صفحة من التاريخ أحببت ان تطلق شعاعاً فلربما أضاءت شيئاً من عتمات الواقع، وأوقفتنا على طرف من الحقيقة!.

حقوق النشر©٢٠٠٢ محفوظة لجريدة السبيل
تصميم و تطوير CyberWeb Technology